

# عرب الصحراء يستمدون الرضا من بساطة حياتهم المجردة



سعود المطيري

نزلت فيها في الصحراء السورية حيث كان الرجال الضامرون والأطفال الجائعون يحيونني ويرحبون بعبارات الصحراء الجهورية . كانوا يضعون طبقاً كبيراً اسامي من الارز المكوم حول خروف ذبحوه من أجلي ثم يسكب مضيقي الزبدة السائلة الذهبية فوقه حتى تطفو على الرمل، وعندما كنت اعارض قائلًا : يكفي .. يكفي ، كان يجيبني : أهلا بك ألف مرة . كان كرمهم المسرف يزعجني دائما لأنني كنت أعلم انهم يجوعون اياما، ومع ذلك عندما كنت أتركهم كانوا يقنعونني تقريبا بأنني تكرمت وتفضلت بالبقاء معهم . اعترضت أفكارني أصوات زملائي المرتفعة وكان بن قبينة

■ في طريقه إلى صلالة عمان كان الرحالة الإنجليزي ولفرد تيسيفر وادلائه قد اصطادوا ارنبا برياً طبخوه وشربوا حسائه، وعندما هموا بتقديمه نزل عليهم ضيوف من معارف الادلاء الذين تخلوا عنه مع العشاء القليل لهم امتنعوا وامتنع معهم الرحالة مكرها من المشاركة، الامر الذي جعله ينسحب إلى فراشه عندما وجد النوم مستحيلاً ليمضي بقية الليل بين صراع الندم على الاربب والانتصار على الذات ولم ينقذه في تسلية النفس سوى ذكرياته في بادية الشام يوم ان تلقاه البدو السوريون بكل مظاهر الضيافة العربية . تذكر كل تفاصيل الحفاوة وغاص في تحليل فلسفي خلص في نهايته إلى ان من خصائص العرب تطرقهم لأفعالهم مهما كانت، مستمدين رضاهم من بساطة حياتهم، سؤالنا لو أكلوا الاربب على أثر الحساء هل سنجد مثل هذه القراءة الفلسفية عن طبائع وتناقضات عرب الصحراء من رحالة بقامة ولفرد عند ما قال ضمن كتابه رمال العرب :

فكرت بتمعن بهذه الضيافة الصحراوية وقارنتها بضيافتنا ، تذكرت المخيمات الأخرى التي نمت فيها والخيام الصغيرة التي

يأكلون بكثرة .

والبدو يقيمون وزناً كبيراً للكرامة الإنسانية . وأكثرهم يفضل أن يشهد رجلاً يموت على أن يراه يهان . ومع انهم متحفظون امام الغرباء، ومعتادون في المناسبات الرسمية الجلوس دون حراك صامتين فهم شعب ثرثار خفيف الروح ، وربما لا يوجد اناس آخرون كشعب أو كأفراد يجمعون مزايا متناقضة كهذه في درجات متطرفة .

ظللت أسمع اصواتهم حتى مطلع الفجر . وفي الصباح الح علينا بخيت ان تأتي إلى خيمته قائلاً سأعطيك السمن واللحم . وأغرانا هذا العرض لاننا كنا جائعين جداً ، ولكن حمد قال من الحكمة أن لا نذهب لأن الرمال التي يخيم فيها بخيت مليئة بالاعراب . ومع ذلك اتفقنا معه أن نأتي في اليوم التالي إلى بئر مهجورة في الجبهة الشرقية لشراء جمل . وقد قابلناه هناك قرب الغياب وكان معه ناقة عجوز اسمها ( حازمية ) سوداء الجلد في حالة جيدة . وكان لها قطع من الجلد تتدلى من أقدامها . فقال العوف انها لن تتمكن من السفر بعيدا عن السهول الحصباء في بلاد الدورو . ومع ذلك اشتريناها كي نذهبها بعد أن تهتري أقدامها .

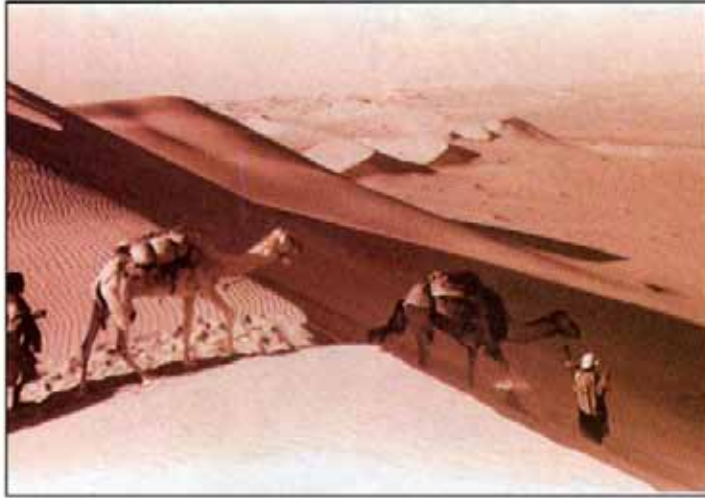


تقريباً ، شجعانا إلى حد لا يصدق، أو هيايين دون ما سبب ظاهر، وهذا التناقض لم يكن يقتصر على ذلك ، فهم بطبيعتهم متكشفون، يستمدون الرضا من بساطة حياتهم المجردة، وينفرون من النعم التي يعدها الآخرون ضرورية . ومع ذلك فهم في المناسبات النادرة التي تسنح لهم

أعطى رداءه الوحيد في ( رملة الغافة ) لزميل له، الامر الذي لا يقدم عليه أي انسان الا البدوي . عندئذ أدركت أن من خصائص عرب الصحراء أن يتطرقوا فيما يفعلون، ويكونوا اما كرماء مع التذير أو حريصين إلى درجة لا تصدق . . وصبورين جداً أو ثائرين إلى درجة هستيرية

يحتج حرارة . رأيته يلوح بيديه إلى السماء، فأصغيت اليهم، كانوا يتحدثون عن المال وعن الصواب والخطأ . وفي قضية قديمة في بضع شلنات تخص أحدا منهم . فعجبت، حتى اوشكت أن أعتقد ان ليس ثمة شعباً كالعرب يحب المال إلى هذه الدرجة القوية . ولكنني تذكرت كيف ان بن قبيلة

# جدل ساخن فى القافلة حول حرمة أكل الثعالب والحمير البرية !!



عبور ابن لندن الربع الخالى



صورة حديثة تجمع ابن لندن ببديله

المختبئين خلفهم .

هنا يستطرد الرحالة فى كتابه رمال العرب وهو يصف اولا ردة الفعل عند ادلائه العائدين بلا طعام من قرى رفضت حتى استضافتهم قبل ان يدخل نقاشا فقهييا حول مسألة ما يحل من حيوانات الصحراء ليتلقى منهم فتاوى وتبريرات ليس بالضرورة ان تكون دقيقة وهو يقول :

هتف الدلييلة مبخوت أن هؤلاء الأتباع شياطين وهم يلاحظون كل شيء ثم أكمل ابن اقبينه ( والله ) إنى أحب أن أسطو على احد جمالهم ليس لأنها تستحق السطو بل لأنهم لا يقدررون الغريب ان هؤلاء القرويين ليسوا كأهل صلاة وقد رفضت نساؤهم أن يجرشن لنا الذرة (سؤد الله وجوههن ) لقد استاجرت ( رعى وقمت بالطحن بالليل )

وزيادة فى الإيضاح سألته ماذا أعطوه لياكل فضحك وقال خبزاً وتمراً وحساءً مصنوعاً من السحالي والضب كان دائماً يشمئز من لحم الزواحف وبدأ النقاش عن الأطعمة الشرعية فالأعراب لا يفرقون أبداً بين ما يؤكل وما لا يؤكل إنما همهم التفريق بين الحلال والحرام من اللحوم، إن المسلم لا يستطيع أن يأكل لحم الخنزير مثلاً أو يشرب الدم أو يأكل لحم حيوان لم يذبح وهو حي .

وفى هذه المناسبة سألت فيما إذا كان الثعلب طعاماً محلاً فشرح لي حمد أن ثعالب الصحراء محللة بينما ثعالب الجبال محرمة وقد اتفقوا على أن الغربان محرمة إلا إذا أكلت دواءً لألم المعدة قال مسلم إن جماعة (٠٠٠٠) يأكلون الحمير البرية التى تعيش فى بلادهم

■ فى عبوره الأول للربع الخالى وأثناء عودته إلى صلالة كان المستشرق (ولفريد ) أو مبارك بن لندن قد شعر بقرب نفاذ كمية الطعام مما اضطره إلى عقد مشاورات طارئة مع إدلائه عن كيفية الحصول عليه من بعض القرى والمدن التى كان يعد بها دخول أى نصرانى او صاحب ديانة أخرى أمرا صعبا يعرضه وبقية القافلة للايقاف والقتل وطاردهم شبح رجل صارم يدعى الرقيشى لو امسك به لفصل راسه عن جسده، اتفقوا بداية الأمر أن يختفى بشخصية سيد من أسياد حضرموت لكنه نفسه اكتشف ان القرويين سوف يلاحظونه للاستفتاء عن بعض أمور الدين التى لا يفقه بها شيئا ويكتشف أمره، ثم عرض فكرة شخصية التاجر ( السوري ) التى صرف عنها النظر بعد ان سألته احد ابرز أدلائه بدهشة.. ما هو ( السوري ) واين تقع بلادهم يوم ان قال اذا كنت انت لا تعرف السوري فكيف لي ان اقنع الآخرين . اخبرنا اتفقوا ان يبقوه صامتا متدترا بالملابس الثقيلة التى تخفي ملامحه على ان يظل فوق ظهر الجمل طوال الوقت حتى لا يكتشف البدو شخصيته الحقيقية من خلال ماطا قدمه (المربعة) والمختلفة عن العرب وان يرسلوا قافلة صغيرة تشتري الطعام على ان يدعو انهم من عرب الشمال لوجود خلافات بالنسبة للقرى مع الجنوبيين الا ان القرويين سرعان ما اكتشفوا الكذبة وطردوهم عندما صرخ احدهم أن هؤلاء ليسوا من عرب الشمال كما يدعون انظروا إلى مساند سروج جمالهم المصنوع من الياف شجر جوز الهند وليس من الياف النخيل .. يبدو انهم جاءوا يأخذوا طعاما لبعض اللصوص



## سعود المطيري

فعبّر الآخرون عن الإشمئزاز وعدم التصديق فقلت إني أفضل أن أكل حماراً على أن أكل قطعة برية قال عنها العوف إنها محللة ، سرعان ما تصبح المناقشات بين هؤلاء الناس حامية لكنها في اغلب الأحيان تخفت حدتها بسرعة أيضاً والرجال الذين يصرخون في وجوه بعضهم ويستعدون للجوء إلى العنف يجلسون بسعادة معاً بعد فترة قصيرة وهم يشربون القهوة ، إن البدو لا يحقدون عادة ولكنهم إذا اعتقدوا أن شرفهم الشخصي قد أهين يحقدون بسرعة ويصرخون على الانتقام، اضرب بدويا انه يقتلك فوراً أو فيما بعد ومن السهل أن يسيء الغريب إلى شعوره دون أن يقصد ذلك، وضعت مرة يدي على رقبة الدليلة ( ابن قبيلته ) فاستدار إلي وسألني بغضب إذا كنت اعتقده عبداً مملوكاً، لم يكن عندي أي فكرة عن أن ما فعلته كان خطأ وفي الصباح غلف مخيمنا ضباب كثيف حتى أنني لم اعد أتبين إلا شجيرة (عبل ) على بعد عشرين ياردة من المكان الذي تمددت فيه ولم يكن هناك إلا طبقة بيضاء كثيفة كضباب البحر وفجأة هدر جمل مشير إلى أن شخصا قد تقدم منه تحسست بندقيتي ونظرت حولي لأرى ، كان ابن قبيلته ينفخ في كومة من العيدان

# نزعة شاعرية تقود البدوي لاختيار مكان دفنه فوق ربوة!!



ماكس فون اوستهايم



مات على ربوة شامخة وبهذه المكان الجزيرة

المعدات المناسبة للحفر. ويغلي البدو القبر بالحجارة لحماية من الوحوش. وأحياناً تثبت أعواد من الخشب تحمل خرقاً من الخياشيم بين الأحجار. وليس هناك علامة أخرى لتمييز القبر. يعكس ما عليه الحال عند سكان المدن والفلاحين الذين من عاداتهم وضع أنصاب تذكارية صغيرة للتموتى

وبقدر ما يكون البدوي حصبياً وواقعيّاً بقدر ما تقوده نزعة شاعرية في اختياره للمكان الذي يدفن فيه، فليطفاً لعادة شامية في القدم سبق ذكرها في كتاب الانجيل، يرفض البدوي أن يدفن في ارض منبسطة. فضلاً عن الاودية والمنخفضات، وإنما يريد ان يدفن على ربوة مرتفعة اذا تيسر، أو على قمة جبل شامخ حيث انه يأمل أن يتمكن من مشاهدة أهل قبيلته عندما يحطون رحالهم بالقرب من متوآه. أو ليزداد أهل قبيلته بأساً أثناء الغزو عند ما يشاهدون ضريحه، وهكذا نجد قبور البدو هذه على أغلب التلال المرتفعة في الصحراء، أما المقابر الكبيرة فهي قليلة عند البدو وفي افضل الأحوال نجد عدة قبور متجمعة على كتبان ركامية قديمة.

انتجى كلام الرحالة الذي كان يتحدث عن الفترة المظلمة من بدايات القرن الميلادي الماضي في أجزاء من الجزيرة العربية التي كانت حينها لا تزال منقسمة في الخرافة



سعود المطيري

المضرب عند البدوي أكله الخبز ساخناً من فوق النار، وعند ما يموت البدوي تنتحب النساء في خيمته وفي الخيام المجاورة لها بصوات عالية وحادة تسمى (الولولة) كما هي عادة الشرق كافة يمثل هذه المناسبات. ويتم دفن الميت يوم وفاته بالملابس التي كان يرتديها حين موته دون أي تلوين خاصة، ويقوم بذلك في العادة رجالان، ولكن عند وفاة شيخ من الشيوخ يطلق عيار ناري مرة واحدة أو عدة مرات اما الفسל الذي تنص عليه الديانة فلا يتم الا نائراً، ويتمثل القبر في حفرة بسيطة لا يمكن أن تكون عميقة بسبب عدم وجود

■ قبل ما يتحدث الرحالة الإنجليزي (ماكس اوستهايم) عن الموت والدفن في مجتمع الصحراء في كتابه رحلة إلى ديار شعر وبلاد شمال الجزيرة تحدث عن توم الموت وهي الامراض والعاهات المنتشرة وأشار إلى تمتع البدو بصحة افضل من صحة الشعوب المستقرة، أعزى ذلك إلى بساطة حياتهم ووجودهم الدائم في الهواء الطلق وتجنبهم مسببات الامراض الناتجة عن تقلبات طقس الصحراء إذ يلبس البدوي نفسه (كما يقول) بعباءته لفا محكماً أثناء الترحال لتفادي الإصابة بالبرودة وأمراض العيون ويذكر ان البدوي إذا ما أصيب بالمرض فإنه غالباً ما يحفر في علاجه، فيركض إلى أعشاب الصحراء التي عرفها من خلال التعايش مع الطبيعة إلا انه يعتقد أكثر والقول للرحالة على العلاج المستعمل في جميع الأفراس والمتعل في ابتلاع قطع من الورق تكتب عليها طلاسم وعبارات سحرية غامضة أو آيات من القرآن الكريم ويضمي إلى القول بأنه ينتشر عندهم (استعمال العديد الساخن) وهو الكي الذي يستعمل لكل أنواع السلم ويستعمل في جميع اعضاء الجسم أما الجراح الخفيفة الناتجة عن الإصابات والحروب فإنها تترك وشأنها الا انها تلتقى بسهولة بالغة على غرار ما هو معروف عند الشعوب البدائية كافة ومن

والمعتقدات السائدة قبل انتشار دعوة التوحيد، في نفس الوقت فليس من المستبعد أن يكون هناك مبالغة فيما يخص مراسم الدفن واسباب تفضيل الميت دفنه في مكان مرتفع فمع حقلية ما ذهب اليه الرحالة إلا ان الغالبية كان يوصي أن يدفن في الاماكن المعروفة والمعدة عن مجاري الاودية ومنايات الشجر حتى يعلم مكان قبره وتبقى معالمة واضحة في رجوى دعوة مسافر او عابر سبيل يمر ولو بعد حين.

# أوبنهايم يفند فصائل الخيول العربية (الخمسة)



سعود المطيري

■ يتحدث الرحالة الإنجليزي ماكس أوبنهايم ضمن كتاب رحلة إلى بلاد شمر وبلاد شمال الجزيرة منذ أكثر من مئة عام عن ملكية الخيول عند العرب الذين يعدونها إحدى مظاهر الغنى المتميز ويبدو الاعتقاد السائد عند العرب وما يعتقد أن أعداد الخيول التي يمتلكها العرب مرتقا جدا مفندا سبب تناقصها إلى فناء الكثير منها قفلا في حملات الغزو الدائمة والحروب طويلة الامد ونهب الكثير منها كهدايا استرضاء للمولفين الاثراك مؤكداً أن الثغرة الكبيرة الاولى في ثروة الخيول العربية الاصلية حدثت في عهد الخديوي عباس الاول الذي عرف ملء يديه من اسواق الخريضة المصرية حيث اشترى العديد من الابل والخيول العربية النادرة التي زادت على الف فرس ضمها إلى اسطبله بمصر ويستطرد في هذا الصدد إلى القول: ونلاحظ اثرها بالغاً لشعب الحكومة الهندية بالخيول العربية الذي ظهر في العقود القليلة الاخيرة. ولعملية تصدير الخيول بالجملة إلى بعماي بموافقة السلطان، اما السوق الأوروبية فلا يصل اليها الا عدد قليل جدا من الخيول الاصلية فعلا خاصة أن الحكومة التركية منعت تصدير الخيول منعاً باتاً. سواء كانت جيادا أو افراسا.

البدو، ويعتبر الجسد أن خمس عائلات من الخيل وحدها تتمتع بصفة الاصلية. الضالصة.

البدو، ويعتبر الجسد أن خمس عائلات من الخيل وحدها تتمتع بصفة الاصلية. الضالصة. وهي حسب المعتقدات الشعبية الشعبية سلات ميزها النبي محمد صلى الله عليه وسلم بانها اصيلة وتسمى (الخمسة) ولا يمكن بتطبيعة الحال ان نغير هذا الاعتقاد أي أهمية لأن الخيول الاصلية كانت موجودة قبل عهد النبي صلى الله عليه وسلم. لكن القول بتطابق فيما يتعلق بهذه الظاهرة على الرأي الذي لايزال منتشرًا إلى اليوم والذي يقول: ان (الخمسة) تنسب إلى خيول الملك سليمان الذي يعتقد البدو انه كان ملكا شديد اليأس وله علاقة مع الجن ايضاً. ويسود الخلاف حول اسماء الخمسة الاصلية. اما العدد (خمسة) فلا يتنازع فيه أحد. ويعتقد كثير من الناس أن جميع الخيول ترجع إلى فرس واحدة هي الفرس الاسطورية

ويعد وسط البلاد العربية المتمثل في بلاد نجد ومجموعة الواحات الواقعة جنوبها الموهون الاصلية للخيول الاصلية ونجد في الصحراء العربية الوسطى ان عدد الخيول اقل بكثير مما يعتقد في العادة، ويتناقص هذا العدد بشكل ملفت للنظر اذا طبقنا المقاييس الصارمة التي يستعملها البدو في الحكم على الخيل الاصلية.

اما سكان المدينة فقاييس حكمهم على اصالة الخيل اقل صرامة بكثير من مقاييس

كحيلان العجوز وانها خلفت جميع السلالات الخمس ومن الملفت للنظر ان الناس يذكرون الكحيلان بانتظام على انها احدى السلالات ولكل سلالة فروع خاصة بها، اما السلالات التي تحظى بأوسع نطاق من الاجماع على انها اصيلة فهي كحيلان، سقلاوي جدراني، حمداني سحري، معنقي، رشان، او سلاتات كحيلان وحمدان وحديان وسقلاوي وعيبان، وكثيرا ما تعتبر خيول جلفان وحمدان اصيلة ايضا الا انها تعتبر بصفة عامة نصف اصيلة مهجنة (كديش) ويبدو ان سلالة سقلاوي هي الاكثر عددا. وتذكر من السلالات الاخرى الجيدة عضيمان، عضيمان عامر، رويش،

معزنية، او جنوب، وطوبشه وغيرها. (هكذا قال) انتهى كلام الرحالة أوبنهايم الذي يبدو ان الترجمة خانته في تدوين بعض التسميات. ومما يذكر الاختلاف الباحثين حول هذه الفصائل الرئيسية والتي ترجح اغلبها ان الفروع الخمسة هي الصقلاوي، وام عرقوب، وشويمة، والععبية، والكحيلية لكن بعض الباحثين المستشرقين حصروها في نهاية القرن التاسع عشر إلى ثلاثة اشكال رئيسية هي كحيلان، والمعنكي، والصقلاوي وانخلوا ضمن هذه الاشكال عشرين فصيلة أخرى وثلاثمائة واربعين فصيلة متفرعة.